

الأستاذة: ضميري عزيزة
مقياس: تاريخ الجزائر السياسي 1.
المستوى: السنة الأولى.
التخصص: جذع مشترك.

المحور الثاني : الجزائر في العصر الوسيط.

أولا: الفتح الإسلامي لبلاد المغرب: الجزائر.

اختلفت الحملة التي شنّها المسلمون العرب في شمال إفريقيا اختلافا جوهريا عن الحملات الرومانية والوندالية والبيزنطية التي سبقتها، خلافا لما تزعمه بعض الدراسات الاستشراقية التي تنفي أي تمييز بينها وبين تلك الحملات السابقة، ويكمن هذا الاختلاف في أن الحملة الإسلامية لم تكن مجرد توسع عسكري أو احتلال سياسي، بل كانت فتحا إسلاميا مدفوعا بهدف عقائدي ورسالة دينية تركز على نشر الرسالة الإلهية للبشرية، وقد استند هذا الفتح إلى قناعة راسخة بأن هذه الرسالة لا يمكن قبولها ولن تدوم، إلا إذا قُدمت عبر وسائل نبيلة ومعاملة راقية، مما يعزز قبولها ويضمن استمراريتها، وقد تجسد هذا المبدأ فعليا في سلوك الفاتحين المسلمين الأوائل في شمال أفريقيا منذ فجر الفتح الإسلامي.

1- أثر أوضاع شمال إفريقيا قبل الفتح الإسلامي على الحياة السياسية فيها:

لا تُقدّم المصادر التاريخية معلومات كافية عن الوضع في شمال إفريقيا القديمة قبل الفتح الإسلامي، باستثناء أن المنطقة كانت تحت سيطرة الجيوش البيزنطية ولا سيما الجزء الشرقي منها، وعجزهم عن تجاوز حدود موريطانيا السطائية خلال توسعاتهم في القرن السادس الميلادي، بينما بقيت الأراضي الواقعة غرب هذه المقاطعة تحت سيطرة قبائل المور بمختلف أقاليمها.

عموما، تميز الوضع الديني في شمال إفريقيا قبل الفتح الإسلامي بعدم الاستقرار نتيجة للصراعات العقائدية الحادة بين الكاثوليك والدوناتيين والآريوسيين، فضلا عن الصراع المستمر بين المسيحية والوثنية، كما استمرت العديد من قبائل المور في التمسك بالمعتقدات الوثنية ورفضت اعتناق المسيحية، ففرّت من دين وعقيدة الغزاة البيزنطيين الجدد، على

الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلتها السلطات البيزنطية لنشر المسيحية في المنطقة، واتجه عدد كبير من سكان المغرب العربي إلى الكنيسة الغربية وعقائدها مبتعدين عن الكنيسة البيزنطية، وقد ترتب عن هذا الانشقاق العقائدي أثر بالغ على الحياة الدينية في بلاد المغرب القديم.

من الناحية الاجتماعية، كان الوضع معقدًا، فقد كان المجتمع يتألف من مزيج متنوع من الجماعات العرقية التي استقرت في المنطقة عقب موجات متتالية من الهجرة البشرية: الفينيقيون، ثم الرومان، من بعدهم الوندال، وأخيرًا البيزنطيون. وانعكس هذا التنوع العرقي بوضوح في المجتمع المحلي، لا سيما بين السكان المستقرين في المناطق الريفية والمدن الشمالية، مما أدى إلى ظهور العديد من الجماعات العرقية المنتشرة في جميع أنحاء المنطقة.

يذكر ابن خلدون أن مجتمع شمال إفريقيا قبل الفتح الإسلامي كان قائما على بنيتين رئيسيتين، وهما *البتر والبرانس*، تتفرع كل منهما إلى فروع المرتبطة بالولاءات السياسية والعسكرية والاجتماعية بالجذر الأكبر المنحدرة منه، وتخضع لسلطة قائد قبيلة الذي يتمتع بالنفوذ والمكانة داخل القبيلة.

أثرت الظروف الدينية والاجتماعية على الحياة السياسية في المنطقة، وبدأ حكام إفريقيا البيزنطيون في إعلان استقلالهم عن الإمبراطورية البيزنطية، وكان *هرقل* من الأوائل الذين حاولوا الانفصال، حيث استولى على سفن بيزنطية في قرطاج كانت متجهة لنقل الحبوب إلى العاصمة البيزنطية خلال عهد الإمبراطور *فوكاس*، وقد تطور الصراع إلى عدة ثورات بين الجانبين، وبلغ ذروته بزحف الجيوش الأفريقية نحو بيزنطة للإطاحة بـ *فوكاس* كاستجابة من *هرقل* لنداءات البيزنطيين لإنقاذهم من الظلم الإمبراطوري وقد كان لهذه الصراعات أثر بالغ على الوضع العام في بلاد المغرب القديم.

2-أسباب الفتح الإسلامي للمغرب العربي:

- الخوف من التهديد البيزنطي المسيحي للدولة الإسلامية، لا سيما وأن المناطق الشرقية لبلاد المغرب كانت خاضعة سابقا للسيطرة البيزنطية، مما جعلها قاعدة محتملة لشن هجمات على الشرق الإسلامي.
- السعي نحو حماية وتأمين الحدود الغربية للدولة الإسلامية من الغارات البيزنطية المتكررة، إذ لا يمكن ضمان الأمن والاستقرار إلا من خلال التوغل في المنطقة والقضاء على التهديدات العسكرية المحتملة.

- الرغبة في فتح المغرب العربي ونشر الإسلام فيه، حيث تطلب نشر الرسالة الإسلامية فهم السياق الإقليمي واستكشافه، وتقييم مدى استعداد سكانه لاعتناق الدين الجديد.
- اقتناع الفاتحون المسلمون بضرورة ترسيخ وجودهم في المغرب العربي والتفاعل مع السكان المحليين، لإتمام الفتح وتوطيد القوة الإسلامية وبناء دولة مستقرة في المنطقة.
- بسط السيطرة على مختلف المناطق والأراضي المطلة على البحر الأبيض المتوسط لمواجهة التهديد المسيحي الغربي الذي يعد هذا البحر مصدراً له، مما استدعى وضع خطط للسيطرة على المنافذ البحرية، حيث تم التوسع على الأندلس وإخضاعها إلى أراضي بلاد المغرب.

3- مراحل فتح بلاد المغرب:

مرح الفتح الإسلامي لبلاد المغرب بهدف نشر الدين الإسلامي وتوسيع امتداد الدولة الإسلامية من الناحية الغربية، وتصفية الامبراطورية البيزنطية المناهضة للإسلام، بعدة مراحل، يمكن عرضها على النحو التالي:

← مرحلة طلائع الفتح:

في عهد **عمر بن الخطاب**، توغل الجيش الإسلامي في مصر وطرابلس، وترسخت دعائم الإسلام في البلدين وأقيم حكم إسلامي فيهما، وكان **عمرو بن العاص** القائد الذي قاد فتح مصر عام 22هـ/643م، ومن هناك واصل فتوحاته في أفريقيا حتى وصل إلى طرابلس. عندما طلب **عمرو بن العاص** من الخليفة **عمر بن الخطاب** الإذن بمواصلة التوسع الإسلامي في بقية شمال أفريقيا، رفض الأخير وأمره بالتوقف، خشية تعرض الجيوش الإسلامية لإنتكاسة، خاصة وأن قبائل البربر كانت معروفة بتمرداتها وثوراتها المتكررة على الدول المختلفة التي حاولت فرض حكمها على أراضيها، إذ كان **عمر بن الخطاب** مقتنعاً بفكرة أن اتساع الأراضي وكثرة القبائل المتمردة يُصعّب على الدولة إحكام سيطرتها عليها. وفي عهد الخليفة **عثمان بن عفان**، صدر أمرٌ إلى والي مصر آنذاك، **عبد الله بن سعد بن أبي سرح** عام 27هـ/647م، بقيادة جيشٍ قوامه عشرون ألف مقاتل لفتح ما تبقى من مناطق شمال أفريقيا، وكان **عبد الله بن سعد** القائد العام لهذا الجيش.

عندما وصل **عبد الله بن سعد** إلى مدينة **سبيطلة** (توجد حالياً بتونس)، حاول التفاوض مع القائد الروماني **جرجير** وإقناعه باعتناق الإسلام، غير أن هذا الأخير رفض الأمر وحشد جيشاً قوامه نحو 120 ألف رجل لمواجهة المسلمين، وبعد ثلاثة عشر يوماً من المناوشات والمفاوضات، وبفضل وصول تعزيزات من المقاتلين المسلمين بقيادة **عبد الله بن الزبير**، حقق المسلمون انتصاراً حاسماً على الرومان، أسفر عن مقتل **جرجير** وانتصار المسلمين.

وبعد هذا النصر، عقد **جناحة** صلحا مع العرب وبسط النفوذ الإسلامي في شمال إفريقيا الذي أصبح منذ هذا التاريخ بدون حاكم حقيقي فيها، مما سمح لزعماء القبائل البربرية بأن يصيروا أحرار بدفع الجزية لقادة المسلمين.

غير أن الرومان سرعان ما أدركوا الخطر الذي يمثله النفوذ العربي المتزايد في شمال إفريقيا بمجرد علمهم بالتصالح بين القادة المسلمين وخليفة جرجير الروماني، فأرسلوا جيشا إلى شمال إفريقيا وتمكنوا من استعادة نفوذهم وتوسيع سيطرتهم على المنطقة، كما شنّ البيزنطيون هجوما كبيرا على مدينة الإسكندرية عام 651/31م، لكنهم هُزموا في هذه المعركة وانحصر نفوذهم بعد ذلك في شمال إفريقيا.

بعد ذلك بفترة، أمر الخليفة والي مصر آنذاك، **معاوية بن خديج** 666/45م، بالتوجه إلى شمال إفريقيا لإعادة بسط النفوذ الإسلامي هناك، وقد تمكن **معاوية** في البداية من استعادة السلطة في بنزرت وجربة وسوسة، لكنه تخطى لاحقا عن المزيد من الفتوحات الإسلامية بعد استدعائه من قبل الخليفة **معاوية بن أبي سفيان**.

← مرحلة تثبيت الفتح الإسلامي:

بعد عزل **معاوية بن خديج**، خلفه القائد **عقبة بن نافع**، الذي أرسله الخليفة **معاوية بن أبي سفيان** على رأس جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل بهدف إقامة دولة إسلامية دائمة في شمال إفريقيا. وفي عام 669/50 م، عُيّن **عقبة بن نافع** واليا على إفريقيا، وفي عام 670 م أسس مدينة القيروان كمقر لولايته، نظرا لبعدها عن المدن الساحلية التي كانت لا تزال تحت السيطرة الرومانية، ولموقعها الجغرافي الاستراتيجي، فهي موقع دفاعي حيويّ تسمح برصد تحركات العدو عن بعد وصد غارات البربر المفاجئة.

لكن بعد خمس سنوات من العمل المتواصل لتحسين القيروان وترسيخ مكانتها ولاية ثانية للمسلمين في أفريقيا، قرر الخليفة **معاوية بن أبي سفيان** عزله وتعيين **مسلمة بن مخلد الأنصاري** واليا على مصر وإفريقيا. وفي سنة 674/55 م عزل هذا الوالي **عقبة بن نافع** وعيّن مكانه واليا جديدا هو **أبو المهاجر دينار**، الذي استمر حكمه حتى عام 678/62 م، الذي تمكن من فتح قسنطينة عام 678/59 م، وتحويل مدينة ميله مركزا لقيادة ولاية شمال إفريقيا، كما أنه ألحق هزيمة كبيرة بالملك البربري **كسيلة** في منطقة تلمسان.

ترتب عن **وفاة معاوية بن أبي سفيان** وتولي **يزيد بن معاوية** مركز القيادة في دمشق، إعادة **عقبة بن نافع** واليا على إفريقيا عام 682/62 م، وقد أمر الوالي الجديد باعتقال سلفه وأجبره على مرافقته في فتوحاته في جبال الأوراس وطنجة. وعموما يعتبر عقبة بن نافع محرر المغرب العربي من الاحتلال الروماني، إذ وصل بجيشه إلى المحيط الأطلسي.

عند عودته إلى حصنه بمدينة القيروان، تمكن **كسيلة** من الفرار وجمع أتباعه لمواجهة **عقبة بن نافع**، الذي سمح لجيشه بالعودة إلى القيروان بعد سلسلة انتصارات على الرومان والقبائل البربرية، وبالقرب من مدينة بسكرة، دارت معركة حاسمة بين جيش **كسيلة** الذي ضم نحو 5000 مقاتل، وقوات **عقبة بن نافع** وأسيره **أبا المهاجر دينار** ونحو 300 مقاتل وانتهت المعركة باستشهادهما عام 63 هـ/682 م.

شكلت هذه الهزيمة انتكاسة وتهديدا كبيرا للمسلمين، لا سيما وأن **كسيلة** وزعماء الروم احكموا السيطرة على عدة مناطق ساحلية، وشكلوا تحالفا لمطاردة المسلمين من شمال إفريقيا، خاصة بعد احتلال **كسيلة** لمدينة القيروان، الأمر الذي دفع الخليفة الأموي **عبد الملك بن مروان** إلى تعيين **زهير بن قيس البلوي** واليا على إفريقيا عام 69 هـ/688 م خلفا لعقبة بن نافع، الذي سرعان ما جمع جيشا يضم 2000 مقاتل بربري و4000 مقاتل جاؤوا من تعزيزات الخليفة.

زحف **زهير بن قيس البلوي** نحو القيروان، لكن **كسيلة** لم يشتبك معه داخل المدينة بل تراجع إلى قرية مجاورة لها تدعى **ممش** أين دارت معركة حاسمة، أسفرت عن انتصار المسلمين، وهزيمة **كسيلة** وقتله وفرار ما تبقى من جيشه، وبعد هذا الانتصار اعتقد **زهير** بأن الأمن قد عاد إلى شمال إفريقيا وأن مقاومة البربر للمسلمين قد انتهت، فتنازل عن ولايته لصالح أحد أنصاره وعاد إلى **برقة**، إلا أن الرومان هاجموا على برقة وقتلوه عام 71 هـ/695 م.

← مرحلة استكمال الفتح الإسلامي:

بعد وفاة **زهير بن قيس البلوي**، أمر الخليفة **عبد الملك ابن مروان** بتشكيل جيش قوامه 40 ألف مقاتل بقيادة **حسان بن النعمان**، الذي هجم على مدينة قرطاجنة وتدميرها عن آخرها لمنع أي محاولة من الرومان للعودة إلى شمال إفريقيا، ثم زحف إلى الجزائر ودخل تبسة ووصل إلى جبال الأوراس، ووقعت المعركة الكبيرة بين جيشه المنهك وبين الملكة البربرية **الكاهنة**، التي كانت مقتنعة أن المسلمين يسعون للاستيلاء على الغنائم والأموال وقد تمكنت من هزيمة جيش **حسان بن النعمان**، وأمرت بحرق الغابات والتخلص من الثروات التي قد تشجع المسلمين على العودة إلى المنطقة، مما أثار استياء كبيرا بين سكان البربر، ودفع بعض معارضيها للتعاون مع أعدائها، ويقال أن خصومها من البربر هم الذين طالبوا بعودة **حسان بن النعمان**، ودعمه ضدها دفاعا عن حقوق الشعب.

في عام 81 هـ/700 م، وبعد أن نال **حسان بن النعمان** دعم الخليفة **خالد بن يزيد** عاد إلى جبال الأوراس، حيث خاض معركة انتهت بمقتل **الكاهنة** في بئر الكاهنة عام 82 هـ/701 م، وعقب هذا النصر، انضم 12 ألف جندي من جنود **الكاهنة** إلى جيشه واعتنقوا

الإسلام كما ساهموا في نشره في المنطقة، وبذلك استفاد **حسان بن النعمان** من شجاعة البربر وخفف من ثوراتهم ضد المسلمين، ثم عاد إلى القيروان لتنظيم شؤون الدولة وتأسيس الصناعات الخفيفة، لكن في عام 85 هـ / 704 م قرر **عبد العزيز بن مروان** والي مصر الذي كانت تخضع له إمارة إفريقية عزل **حسان بن النعمان**، الذي يعتبر من أبرز القادة الذين ساهموا في جعل دول المغرب العربي دولة إسلامية خاضعة للخلافة الإسلامية كما نجح في القضاء على النفوذ الروماني وتهدة القبائل البربرية، بل وهدى الكثير منهم إلى الإسلام.

في نفس السنة، أقدم **عبد العزيز بن مروان** حاكم مصر، بتعيين **موسى بن نصير** واليا على إمارة شمال إفريقيا. وكان أول عمل قام به هو توحيد القبائل البربرية التي لم تخضع بعد للمسلمين. ثم زحف من القيروان إلى طنجة لتحريرها من الرومان، وقد ساعده في هذه المهمة **طارق بن زياد**، الذي تولى قيادة الجيش الإسلامي لفتح الأندلس. وفي أبريل من عام 710 م جمع **موسى بن نصير** جيشًا من سبعة آلاف مقاتل بربري تحت قيادة **طارق بن زياد** الذي احتل المنطقة الجبلية المعروفة الآن باسم جبل طارق، وعند انتقاله إلى أرض اليابسة، طلب تدعيمًا من **موسى بن نصير**، فزوده بخمسة آلاف مقاتل بقيادة **طريف بن مالك**، وفي القواعد الأمامية، خاطب طارق بن زياد جنوده بعد أن أحرق السفن مؤكدا أن البحر خلفهم والعدو أمامهم، وأنه ليس أمامهم خيار سوى الصبر والثبات، وأوضح أن وجودهم على الجزيرة يضعهم في موقف حرج، إذ تفوق عليهم العدو في العتاد والمؤن والقوة، بينما لا يملكون إلا ما ينتزعونه من سيوف العدو، ولا سبيل أمامهم إلا الاعتماد على عزيمتهم. وأكد لهم أن الأمير عبد الملك بن الوليد يثق بهم لشجاعتهم وبسالته، وحثهم على الثبات وعدم السماح للظلم بالسيطرة، وذكرهم بأنهم بصحبة أبطال وفرسان، وأن الله سيجازيهم على نصرته دينه ونشر كلمته في الجزيرة حتى لو كره الكافرون.

في التاسع عشر من يوليو عام 911م (28 رمضان 92هـ)، اشتبك الجيشان في معركة وادي الكهف، التي استمرت ثمانية أيام وانتهت بانتصار حاسم للمسلمين على القوط. عقب هذا النصر، زحف الجيش الإسلامي نحو مدن إشبيلية وقرطبة ومالقا وطليطلة ودخلها عام 93هـ دون مقاومة تذكر. وفي عام 95هـ / 714م، عين **موسى بن نصير** ابنه **عبد العزيز** واليا على إشبيلية التي اختارها عاصمة للأندلس، وأبقى **حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع** وزيرا ومستشارا له، ثم عاد موسى إلى دمشق مرورًا بالقيروان والقاهرة.

وصل **موسى بن نصير** إلى دمشق في يناير عام 715م (96هـ)، قبل أربعين يوما من وفاة الخليفة **الوليد بن عبد الملك**، وكان جزاؤه على هذه الفتوحات الإسلامية عزله، إذ كان يخشى الخليفة الأموي من تنامي نفوذ **موسى بن نصير** وأبنائه وأنصاره في إفريقيا والأندلس، فضلا عن احتمال سعيهم للاستقلال أو التحرر من سلطان الخليفة.

وباختصار فإن الفضل الأكبر في هذه الفتوحات يُعزى إلى **موسى بن نصير**، الذي لعب دوراً محورياً في تعليم القرآن للبربر، وفي عهده اعتنقت شعوب المغرب العربي الإسلام، كما شاركوا في الجهاد وساهموا بفعالية في فتح الأندلس، وجعلها امتداداً للولاية الإسلامية في شمال إفريقيا. ومن خلال هذا النهج العملي، نجح **موسى بن نصير** في إرساء انسجام فكري كبير بين العرب والبربر، عن طريق غرس المبادئ الإسلامية في نفوس البربر وتوحيد صفوفهم ودمجهم مع إخوانهم العرب المسلمين. ونتيجة لذلك، أضحت العرب والبربر قوة موحدة ومتماسكة، وكانت آثار هذه الوحدة واضحة جلية في الأندلس، وقد وافته المنية وهو يؤدي مناسك الحج مع الخليفة **سليمان بن عبد الملك** عام 97 هـ/718م، عن عمر ناهز السابعة والثمانين.